الباب الرابع

علم القراءة وثمرته

الفصل الأول: علم القراءة.

الفصل الثاني: منهوم القراءة.

الفصل الثالث: هَجْر القراءة.

الفصل الرابع: رُفقاء القراءة.

الفصل الخامس: ثمرة القراءة.

الفصل الأول

علم القراءة

الكلمات كالأزهار كُلّما قرأها قارئ أحياها فنمت، ومثله المُستمع، لأنه يقرأ الفكرة، بأذنه المُترجمة، لقلبه الواعي بالعقل، ما بين الأصوات.

لذا ينبغي لمن أراد القراءة، أن يكلاه ويرعاه ويُوَجّهه ذو دراية؛ لأن القراءة علم وغاية للوُصول، ويكون له مُدَرِّب للقراءة، كَمُدَرِّب الفريق؛ لأن القراءة لها أدوات، تُشَكِّل فريقا، وينبغي للقارئ الإلمام بمُعظمها لتحقيق ما يأمل.

أو يُحدِّد الغاية، التي يُريد أن يقـرأ مـن أجلهـا، إن كانت إملاء للفراغ، أو معلومات تُغني الذهن عـن موضوع مُـحدّد؛ ليتسنى له كيف يقرأ مـا تيســر، مع الحذر من التلبس بأفكار مُشتّـتـة، أو مُبعْـثرة، أو خطــيرة، فربمــا تنــتهي بــه إلى الضــلال، أو الـخروج عن الـحقيقة.

وإذا لـم يـحظ بمُشــرْف، أو مُوجـه، أو مُـربٍّ، أو مُدرّب صالح للقراءة، لعله ينحرف بأفكاره، والعلة ما تتجــه بـه قـراءة بعـض الكتـب، نحـو التَّـدني الثـقافي، وليس الارتـقاء.

إن القراءة علم وفن، وإذا مـا حـذفنا مـن الكتـب نصوصها الــمقتبسة، والــهوامش، فكـم سـطر سوف يبقى من فكر الكاتب؟ وأيـن علمـه مـا بـين السطور؟

وما هي الغاية من أعداد الصفحات التي ليس فيها مؤونة روحية؟

وكيف تنظر إلى صاحب الكتاب، وقد علمت بأن في سطوره الكثير مما أخذه عن غيره، دون الإشارة إليه؟

ولَمَّا تعلم أن ما يكتبه ليس بخلاصة أفكاره، وغايته منه أن يملأ الصفحات، دونما رعاية لك كقارئ، وربما يقتبس لك ما يوافق مبادئك، وهو منقوع بالسَّمِّ مِمَّن يخالفك في الاتجاه، فهل ستقرأ له ثانية؟

أ أدركت وأنت تقرأ بأن الكاتب فَكَّر فيك كقارئ، تحمل ثقافة؟

وما عدد الكتب التي عثرت عليها في رحلتك مع القراءة وهي تحمل فكرا، بالنسبة مع ما قرأت؟

كيف تتدبر لَمّا تقرأ؟ وكم هي الحقيقة بين السّطور؟ ومن كتبها؟ ومن نقلها؟

متى تقرأ ثقافة في كتب الثقافة؟ وكيف تنظر إلى نسيج الخيال والوهم بقلم ساسة الأفكار؟

أين جمعت عدد الأسئلة التي تولد في عقلك وأنت تقرأ؟

وهل تتأثر بالقراءة؟ إذا كان الجواب: نعم. فبماذا؟ وإذا: لا. فلماذا؟

أَ تُصَدِّق ما تقرأ؟ فإن كان: نعم. فما دليلك على

صحته؟ وإن كان: لا. فلماذا تقرأ ما لا تُصَدِّق؟ وكيف علمت بأنه ليس الحقيقة؟

لمن تقرأ من الكُتّاب؟ لأجمعهم؟ أم نخبة منهم؟

وما تميل إليه من الكتب؟ القديم، أم الحديث؟

ماذا تصنع لَمّا تُدرك وأنت تقرأ بأن بعض النُّصُوص مسروقة؟

وما يجب علينا أن نعمل؟ وأين تجد الجديد لِتَقرأ؟

أيُّ رُتبة في القراءة بَلَغْتَ؟ وكم عدد خطاك في علم القراءة؟ وما هي الخلاصة؟ وهل أدركت فَقْر أشباه الكُتّاب؟

وحين التحصيل هل قررت أن تصنع حروفا حقيقية لا تشبه المكررات؟ أو أن تصوغ الأفكار التي نَفَخَت فيك الحياة بهيكل آخر، لها قوام أبهى؟

فالكلمات التي تنبع من قلب نابض بالعلم تحوي فِكْراً في قوالب ألفاظها، كالدُّر في الأصداف، كُلّما تأملتها تُشْرِق من جديد.

إن القراءة علم غريب، لا ينفعك من بعضها إلّا القديم، كأصول الملل والأدب، وبعض لا تجد نفعا من مادته، إلّا ما كان حديثا، وهذا مُتعلّق بالعلوم كالفلك والحاسبات، وبعض تقرأه فيترك الأثر.

الفصل الثاني

منهوم القراءة

منهوم القراءة يعلم كيف يستثمر الوقت والكتـب، والقارئ النَّـهم يكون عملاقا في أفـكاره، وَيُـدْرِك جهل مَن حوله لَـمّـا ينظر إليهم.

وللقراءة قواعد بمـا أنها علم وفـن، والسـعيد هـو الـمنهوم للقراءة.

لا يشبع من القراءة، مُغرم بجمع الـمعلومات، يسير إليها بالقراءة، وحريص على ادخـار مـا أمكـن في خزانة عقله، مُولَع بكل مـا فيـه عِلـم؛ ليسـتزيد منه، ويُـجدد فيه ما حوى صدره.

ويمتطي صهوة النور، يعرج إلى العُلا؛ ليلمع بما يعلم، وينثر الروائع بالمودة، مِن سَعَة، وهو الرَّائق مِمَّا يشوب النُّصح، راقِ الرُّتبة.

المنهوم مُغامر لا يأبه في أيّ وادٍ سلك، لأنه تَدَرّع بالنقاء، يَطّلع على ما تبعثر، يَنظم به عقد جواهره، ويرعى ما يكتنز بِلُبّه.

ولا يُدْرَس ما لديه إلّا بِفَوْتِه، فالموت يُغيّب سِرَّه، والحياة محل تجارته؛ لِيهنأ من يشري منه زاده، فالعلم حياة القلوب.

المنهوم الآكل مِمّا فيه الحياة؛ لأن فيه النجاة، ومن كان هَمّه العلم ناله، وبلغ القمة.

الفصل الثالث

هَجْر القراءة

لكل فعل أثر، وهجر القراءة يُنتج عادات وتقاليدا نَكراء، لا يأنس بها العُقلاء، ويَسقط في وحل الجهل مَن لا يقرأ، ويغدوا سلعة بيد الجبابرة.

القراءة وهجرها، كالخير والشر، والرجاء واليأس، والحُب والبُغض، والفهم والحُمْق، والنُّور والظُّلمة.

ومن يهجر القراءة لا يستطيع إدارة عقله، أو معرفة خريطته، وقلبه كأعمى، يتوكّأ على ما تبقى من حواسه، في ظلام، كميت يتنفس.

وفي كل يوم يضحك على جرائمه الـتي ارتكبهـا في حق نفسه، مِن قتل للوقت، وهدر للشباب، وسرف في بناء شخصيته، وانتهاكه حقوق الاحترام لذاته.

وَيُؤثِّـــر الـــهجر للقـراءة على فهـم الذات والحيـاة، وعدم وضـوح الرؤيـة للحقـائق، ويكـون عنـده الـــخلط بالـــمفاهيم أمـرا كثـير الـورود، ولعـل الـــحصانة إن لـــم تتـوفر مـن الـمـــحاكاة مـع الـــمجتمع يكـون الفشـل نتيجـة حتميـة في كل الـخطوات.

ولا ينبغي للإنسان في مسيرته مع الزمـان أن يـبقى ذو فكر وليد، وغير نامي، لا سيمـا في عصر صـعب أن يولد فيه القرار.

وإن لـم تقرأ فمـذموم صـنيعك، وسـوف تـمقت الـحياة، وتُورَث الندم، لأنك تجهل مـن أنـت، ولا تعلم ما تريد، وحياتـك كسـراب، تسـبح في بحـر الغرور، لا تزال في خُدْعة، ولـيس للأمـاني آمـال، عليل لا طبيب لـك، ولَـمّـا تستـفيق تُـولد مـن جديد، ويستحيل الوهن قوة.

إننا في رحلة مع العمر، ولن نجد مثل القراءة كـنزا يستحق الـمسير إليـه، يـجلو الضـمير، ويُصَـحِّح الفكرة والفِعل.

الفصل الرابع
رُفقاء القراءة

عُلَماء، حُكَماء، رُحَماء، يعلمون ما يقولون، ويقولون ما يفعلون، يعبق ظلالهم بالعلم، ويُنْفِقُونَ عِلمهُم لِقُوت النُّفُوس، ولا يخوضون فيما ليس لهم به علم، ولا يخسرون.

يزين الدليل كلامهم، وألسنتهم ترجمان قُلوبهم، قُدراتهم عالية، وَقُطوف تجاربهم دانية، وَسِعَت صُدورهم بالعلم، وأحاطوا من قراءاتهم علما.

يُعَلِّمُون الناس ما يعلمون، ولا يبخلون، ولا

يمنعون، ولا يُحَرِّفُون، ولا يُسِرُّون ما يعرفون، شَرَوْا حَظَّهم بالمزيد، ولا يكتمون النُّور، ولا يكذبون، وهؤلاء قليل.

يعرفون الحُدُود، وأحكام الوُجُود، وأُصُول الحياة، لا يستوون، ولِكُلٍّ ثِقْلَه.

فمنهم يعلمون ظاهرا من الحياة، ومنهم شَهِدَ الحق، ظاهره وباطنه، يُظْلَمُون ولا يَظْلِمُون، حتى أنفسهم، أقوياء بالصَّبْرِ، عَلِمُوا قَدْرَهُمْ بما يُحْسِنُون.

أشواقهم مُجْتَمِعَة إلى القراءة، لا يَمِلُّوا، ولا يَكِلُّوا، يَكِرُّوا إليها، ولا يَفِرُّوا.

نَهوا النفس عن الـهوى، فلا يَتَّبِعـوا أهـوائهم، ولا يميلوا بها.

انقشعت عن أبصارهم الغشاوة، وختموا باليقين ما اختاروا.

يُـحاسِبون أنفسهم بمـا قدَّمَت وأَخَّرَت؛ لِـيُـوَفَّــوْا أُجُورَهُم، وَيَتَّــقون الغفلـة، ولـيس في صُـدُورِهم كِـبْـر.

ورفيق القراءة له عرش رَصَّعَتْهُ جـواهر الــحكمة، يَأْلَـفُ شِبْـهَه، وينجذب إليه.

أحيــاء بأنفاســهم، وإن مــاتوا فبــنقش ألفــاظهم، آثارهم في القُلُوب أوطانها، وظلالهم لا يعفوا عليها الزمن.

كُلَّما طالت صُحْبتهم أدركوا معاني الخُطُوط، فرفيق الكتاب نقيب عن كُلِّ مكنون، مُسْتَقر وَمُسْتَوْدَع في السُّطور، وقد دَرَسَتْ ظُنُونَه، بما أبصرت عُيُونَه.

وكُلّ قارئ تُتَرْجِمُ باصرته النِّيّات التي مكثت بين أسوار الجُلود، وهُو يَرْتَع في بساتين الكتب.

تُحَدِّثُه كُتَّابُها، وهُم أشجارها، بعقولها، وينطقون بأقلامهم، يُحَدِّثُونَه بها، وشتّان ما بين العناوين.

وَرُبَّ قارئ لِقَلَم لم يَبْلُغ الحُلُم، حَرِيٌّ بذلك القلم العدم، إذ ليس فيه إلّا أشواك وظلام، يغتال الوقت الذي يجب أن نحيا فيه.

القـراءة رفيـق لا يُمَـل، وبُسْـتان يرتـع فيـه أهـل الـخاطر، الـمُعْـتَـكِفُون عن الأباطيل، العـاطلون عـن اللغـو، حُلْيَـتُهُم فيـه الفصـاحة، وصـياغتهم مُـــجرّدة عــن اللحــن، وبــئرهم عميــق البــدائع والـمعاني، وعلمهم راسخ، يُسقَوْنَ فيه الفهم.

الفصل الخامس

ثمرة القراءة

على كُلّ قارئ نَشـْر علمه الذي هو خُلاصة ما نفعه أثناء القراءة، لِـخاصَّتِه وأهله وأصدقائه، من أجل أن ينهلوا مِـمّـا نهـل منـه، أو يتنبّهـوا ألا يُضَـيِّعوا أوقاتهم؛ لأن عُمْرَ الإنسان أنفاسه، وما مضـى لـن يعود، ومن سرقه منك فهو كمن غَشَّك.

وكذلك ليتحصن الـمثقف مـن الأفـكار الفاسـدة، والعقائد الـمختلطة، والأسمـاء الخادعة، ويتعرف على من هو أهل لقراءة فكره وكلمـاته، لأن كتابـه سيكون بمثابـة نبـع يفـيض بالـمعاني، فللأقـلام وَحْيٌ، تُورق أغصانه في الصدور.

الإنسان نظير أشباهه، وشريك جلدته، وقانونه التعايش، وأخلاقه الإنسانية، والفطرة السليمة يكون لها انبعاثا مُشرقا، لذا مَن يُريد أن يكون مصباحا، يُدْرَكُ مِن خلاله أقرانه طريق النور وَسَطَ الظلام، عليه أن يقرأ.

وليس الفقر أو اليتم أو الطبقية عائق عن القراءة، بل من يتجرع الصعب يصنع ذاتا أقوى، ويكون له عزم وعقل راجح.

ومع الأيام يَتَوَلَّد للقراءة مَذاقا خاصا عندنا، وتُؤثّر أصوات الحروف على مداركنا، وحواسنا، وتلعب الذاكرة دورا في مسيرة القارئ، وهو يجمع ويربط الأشياء مع بعضها، ويجمع المُؤْتلف، ويُوَحِّد المعلومات في ذهنه، وَيُحَلِّل، وينقض، وَيَسْتَدِل، وَيُفَسِّر.

كما سوف يمتلك القُدرة على تمييز الحشو، والكلام الفائض في السطور، فكثير من الجُمَل لكثير من أصحاب الأقلام في كتاباتهم بمختلف مصنفاتهم تملأ نصف صفحة من الكلمات؛ لأجل أن يقول ثلاث كلمات، وهذا ما يجعل استهلاك التركيز لدى القارئ كثيرا.

إن مَن يُتقن القراءة ونظامها يستطيع بدوره أن يهب القُدرة، ووسائل الحصول عليها، لكل مبتدئ في القراءة، مثل الأطفال والأُمِّيين، والذين لم يسلكوا هذا المضمار من ذي قبل.

ومن يقرأ سيعمل على فهم ما يقرأ لاحقا، رغم أنه في البداية لم يكن البعض يركز على هذه الإشارة، ويكون المخزون من المعلومات تُغنيهم في

إدراك الكثير من النصوص الـمبتورة، أو تلك التي لـم يأبه الكاتب تبيينها بدقة.

وبحسـب التكـوين الـخلقي لـكل منـا تـختلف قُدراتنا في العمل والفهم والإدراك، وحتى في النظـر والتحليل، ومن يقرأ كتابا يكون رفيقـا لـكل مـا فيه، يعيش أحـداثا لـم يشـهدها، وينظـر بعقلـه مدى بعيدا.

وفي كُل عمل نجد الربح والـخسارة، إلّا في القـراءة ربح فقط، حتى التي لا تعود بنفع، يكتسب منهـا القـارئ بطريقـة غـير مبـاشرة رياضـة القـراءة؛ ليتسنى له الاستمرار.

ثم وإن يكن ما قرأه غير نافع، كيـف أدرك ذلـك

إن لـم يقرأ ويعلم؟ وهذا ربـح أيضـا، إذ تـمكن من التـمييـز، لِـمَـا يقرأ، بين مـا ينفـع مِـمَـا لا ينفع.